الكشف عن معالم الانثروبولوجيا الكولونيالية في شمال افريقيا من خلال مؤلفات مالك بن نبي.

أ.توفيق بن محمد- جامعة باتنة 1- الجزائر

الملخص :

الحديث عن الأنثروبولوجيا، يعني الحديث عن الثقافة، أما مسألة اذا ما عرفت المجتمعات العربية " الأنثروبولوجيا "، سبقه فعل الكشف عن وجود " ثقافة " في المعنى العلمي. لأجل ذلك رأيت أن ابحث في معنى " ثقافة " عند قطب الحداثة في المجتمعات المغاربية في خصوصيتها التاريخية والاجتماعية، وانتمائها العربي الاسلامي. وجدت مالك بن نبي، في كتاباته، يؤسس لثقافة جديدة في تاريخ المغرب العربي الاسلامي، وجود خارج مجال المنارة، على حد تعبيره، مصطلح، شاع بين قبائل العرب، في ما لا يوحي بالمعنى، ... عرف قدماء العرب، الترحال بين فجوج الصحراء و أمواج الرمال، أثر ذلك في سلوكهم، انعكس في نمط المعاملة لديهم، اقترن ذلك بضرورة الحفاظ على البقاء ... ورد في النص القرآني في معنى مخالف، لما ورد عند الباحث الغربي...

Abstract :

Talking about anthropology, means talking about culture. Whether Arab societies know "anthropology" preceded by the discovery of a "culture" in the scientific sense. For this reason, I have sought to examine the meaning of "culture" in the pole of modernity in Maghreb societies in their historical and social specificities, and their Arab-Islamic affiliation… In his writings, Malik bin Nabi found a new culture in the history of Maghreb, a presence outside the field of lighthouse, as he put it, a term common among Arab tribes, in what does not suggest the sense... The waves of sand, impact the behavior, reflected in the treatment of them, coupled with the need to maintain the survival. The Koranic text in the meaning, as stated by the Western researcher ...

مقدمة:

الخصوصية التاريخية والاجتماعية لبلاد المغرب العربي، جعلت الحال مخالفا للمألوف، فالتغير التاريخي والاستقرار الاجتماعي، فرض نمط معاشي ومعيشي عليهم. جعلهم يختلفون، واكتسبوا نمطا متميزا في هويتهم، كان من طباعهم "العمران"، المصطلح، المرادف في فهم مالك بن نبي للثقافة ...

شمال افريقيا، طبيعة وعرة، وتضاريس، دفعت سكان الجبال الى الابداع، بناء القصور، المدارس وانتشار الفنون، ليس ابداع ذاتي، يعود الى المجاورة، حركة الحضارات المتعاقبة ، تركت آثارا بليغة في نفس الانسان...ان استقصاء التاريخ، عن التلاقح والتمازج في الطبائع ضروري لرصد المتوارث والمكتسب بين السكان، معمرين أو مدمرين... مصطلح "الاستدمار" حسب مالك بن نبي، قاسم مشترك بين سكان شمال افريقيا، يرسم فرنسا في صورتها العدائية، هاجس يتميز به السكان والطبيعة معا، ثقافة خاصة بشمال افريقيا، تجتمع فيها خصوصيات البيئة والانسان المغاربي. ترك أثر بالغ في روح مالك بن نبي، بخصوصية المثقف، ثقافة فرنسية. أمام هذا التصور، الذي رسم، عن هاجس الخوض في مغامرة مفادها: الكشف عن دلائل و معالم الانثروبولوجيا عند العرب...

مثلت الوضعية الكولونيالية التي عاشها الوطن العربي عموما، وشمال افريقيا على الخصوص، مرحلة تكبد فيها واقعه الاجتماعي، مجموعة من الاضطرابات والاختلالات نتيجة ممارسات تعسفية، منها محاولة محو دعائم استمرارية الأمم، وتقويض ركائز شموخها وأنافتها. كما شهدت دول شمال افريقيا تطبيق مختلف النظريات والاختبارات الجينية، حاولت من خلالها (المدرسة الانثروبولوجية الفرنسية الجديدة) ، البحث في صلب المقدس، الذي يمثل محور الوجود الانساني في شمال افريقيا. انطلق الباحث الغربي "الفرنسي" في ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية، من عدة تصورات عن حالة الانسان المغاربي، وسماه بمختلف التسميات، فمن وصفه بالعبودية، الى تسميته، أسماء الحيوان، ووصفه بالهجين، انه نعت مليء بالكراهية والحقد، عبر من خلاله المستدمرعن رغبة

دفينة، في محو وجود أمة. ظهرت ممارسات عدائية، ضرب بها المستدمر براءة المجتمعات المغاربية، وحاول طمس هوية الشعوب، وحذف وتزييف طقوس مقدساتها. كانت أخطر مرحلة في تاريخ التواجد الفرنسي في بلاد شمال افريقيا، مرحلة التهجين والتدنيس الجيني الذي لجأ اليه المسؤولين السياسيين وقادتهم العسكريين بعد فشل طرق التقتيل والتعذيب والتجويع، والطرق الهمجية المعتمدة، التي بررها أمام الرأي العام العالمي بمختلف الاكاذيب. لكن فشل المغتصب، جعله يرسم مخطط لمحو شخصية المجتمع اعتمد فيه منهجا علميا حديثا، وذلك من خلال صب مورثات مختلف الأعراق في صلب المجتمعات المغاربية.

ضبط الاشكالية:

تعرّف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً ،أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه، يحيا في مجتمع معيّن له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين. ومن هذا الطرح التاريخي نتساءل: هل يمكن البحث وفق ترتيب اجراءات منهجية انثروبولوجية، في الانشغالات السابقة، من خلال العودة الى مؤلفات شاهد القرن "مالك بن نبي"؟ ماهي علاقة هذه الشخصية الوطنية، مع باقي الشخصيات التي ذكرت في مؤلفاته "العفن، مشكلة الثقافة..."، وماهي المحاور الكبرى التي شهدها حضور "مالك بن نبي" بين الشخصيات المهمة التي عاشت في المهجر في الثلاثينات؟ لماذا رفض الفرنسيون بعض الشخصيات التي كان قد اختارها في البداية ثم تراجع عنها؟ من هو " لويس ماسينيون"، وماهي علاقته بالطبقة المثقفة من شمال افريقيا؟ ما هي طبيعة الوصاية التي فرضها على بعض افراد المجموعة؟ ما هي حقيقة الجماعة التي خضعت لرغبات "لويس مسينيون"؟ ما علاقة مشروع"لويس ماسينيون" بشخصية "شارل دي فوكون"؟

ضبط المناهج:

اعتمدت على المنهج التاريخي في سرد الأحداث، والمنهج التحليلي الوصفي لتقصي الحقيقة، بدأت بتحدد مشكلة البحث وصياغتها في مجموعة من الأسئلة، ثم قمت بصياغة ثلاثة فرضيات ، كانت اساسا لبناء البناء في التحليل، ثم رجعت الى استقصاء التاريخ للبحث عن القرائن التاريخية، للأحداث من خلال ضبطها من الواقع. قمت بعد ذلك بتحليل الاحداث وفق خطوات منهجية، بدأت فيها بمحاولة تفسير الوقائع، وتحليل النصوص وتأويل بعض الأحداث المتشابهة، ثم اخضعت شخصية المؤلف للبحث ولاستقراء واقع الحال، وتتبع حياته بالجزئيات الدقيقة، ثم أضعت النصوص للنقد والتمحيص التاريخي، ورد الاحداث الى الثوابت العلمية، وفي ختام البحث استنبطنا مجموعة من الأحكام تمثل نتائج ، خاصة بتحليل الوثائق والتدقيق فيها، ثم اختبار النتائج، وتسجيلها وتفسيرها واستخلاص التعميمات الممكنة.

الوصف التاريخي و تحليل مجريات الاحداث:

يقول الضابط، المنظر المبشر (شارل دوفوكو) في رسالة خاصة بعث بها لصديقه الدوق (فيتس جيمس) سنة 1912 (منشورة في جريدة "لوموند" الفرنسية بتاريخ 1956/05/17): " انني أعتقد أنه اذا لم نستطع تحويل المسلمين بالتدرج عن دينهم وحملهم على اعتناق المسيحية، فان النتيجة الحتمية هي تكوين روح قومية جديدة، تؤدي الى طردنا من الامبراطورية الاستعمارية في شمال افريقيا. ان الروح الوطنية، العربية البربرية، سوف تنمو في صفوف الطبقة المثقفة التي ستستعمل الاسلام، سلاح فعال لاثارة الجماهير الجاهلة، في امبراطوريتنا (...) ان السبيل الوحيد لضمان عدم طردنا من هذه الامبراطورية، هو ان نجعل سكان البلاد فرنسيين، والسبيل الوحيد لذلك هو جعلهم مسيحيين".[1]

يظهر أن الخيانة هي الاخرى تتناسل، شأنها شأن الافكار ، تنتقل عبرالاجيال، مما يستوجب اليقظة للحفاظ على المكاسب، فكل احتلال، انما يحمل في ذاته بذور

الاستقلال. والحتمية التاريخية تبين، ان الجزائر قبل سنة 1830م كانت مستقلة، ثم حدث الغزو وتحولت الجماهير الحرة الى جماهير مقهورة مستعبدة، ثم تحررت الجماهير وانتشر الوعي والثقافة، لكن هذا لا يمنع من الوقوع مرة اخرى في يد المستدمر، ويحولوا الجماهير الحرة الى عبيد.[2]

استعان المستدمر في حرب الافكار، بالمخابرات وعلماء الانثروبولوجيا والمفكرين ورجال الدين، قصد تنفيذ مخططاته الاجرامية، ضد البشرية، فمن وراء مشاهد مسرحية، نجد المنفذ قد رسمها، بمعية عقول مدبرة مشبعة بالكراهية في العالم (لويس ماسينيون) المحظر لعقار "القابلية للاستعمار"، كان الجلاد للمثقفين الجزائريين على الاراضي الفرنسية، والتلميذ المطيع للضابط المخابراتي (شارل دوفوكون) المنظر والمقرر والخبير في ادارة معركة المصير، والمرشح الأول لخلافة سيده، بعد أن قضي عليه (دوفوكون) من طرف الثوار الاحرار في جنوب الجزائر سنة 1916م، بعد ان قضى عشرات السنين، باحثا عن اسلوب يمكنه من تنصير الشعب الجزائري".[3]

من هو شارل دوفوكون ؟ شارل دو فوكون، من مواليد 15 سبتمبر 1858 م في حي "بروللي"، في مدينة ستراسبورغ الفرنسية. انضم إلى "أخوية الرهبان السسترسيون" عام 1890 م في فرنسا ، ثم في قرية على الحدود السورية التركية، تركها سنة 1897 م لأداء رسالة دينية غير معروفة في الناصرة[4]. بدأ في إمامة حياة الزهد للصلاة بالقرب من دير بور كليرس. في سنة 1901 م عن عمر الثالثة والأربعين، منح سر الكهنوت في فيفيرز في فرنسا، عاد إلى الصحراء الجزائرية ، وعاش ناسكا، أقام أولا في بني عباس بالقرب من الحدود المغربية، حيث بنى صومعة صغيرة للتعبد والضيافة، التي أشير إليها لاحقا باسم "الأخوية"، ثم انتقل الى الطوارق في تمنغست جنوب الجزائر[5]. كان يرتاد أعلى نقطة في المنطقة "Assekrem" مكان للاعتكاف، عاش مع الطوارق وشاركهم متاعبهم، لمدة عشر سنوات درس لغتهم وتقاليدهم وثقافتهم. كتب رسائل كثيرة الى أفراد عائلته واصدقائه، كما كان يراسل القواعد الأمنية العسكرية المسيحية.* ألف قاموس للمفردات وقواعد اللغة الطارقية،و مخطوطة قاموسه نشرت بعد وفاته في أربع مجلدات، اشتهر القاموس بين باقي

القواميس الأمازيغية، بسبب غناه وما يتضمنه من أوصاف دقيقة. صاغ فكرة تأسيس معهد ديني، تحقق بعد وفاته، باسم "أخوة يسوع الصغار"[6].في الأول من ديسمبرم1916 أخرج شارل دوفوكو بالقوة من حصنه في تمنغست من قبل مجموعة من الثوار مسلحين بقيادة (إلمدني أغ سوبا)، الذي كان على اتصال بالسنوسيين. كانت نيتهم اختطاف شارل دو فوكو، لكن عندما علم بأمرهم الحراس، فزع (سيرمي أغ ثورا) في الخامسة عشر من عمره، أطلق على رأس "شارل دو فوكو" النار فأرداه قتيلا، عملية القتل شهدها "بول مبارك"، عربي إفريقي كان عبدا سابقا حرره شارل دو فوكو وعلمه، سارعت السلطات الفرنسية للبحث واستمرت عمليات البحث لسنوات، وفي عام 1943 م هرب "إلمدني" من القوات الفرنسية في ليبيا بعيدا إلى جنوب فزان، أما "سيرمي أغ ثورا" فقبض عليه وأعدم في جانت في عام 1944م.[7]

من هو ماسينيون ؟ "لويس ماسينيون" Louis Massignon 25 يوليو 1883م - 31 أكتوبر 1962م مستشرق فرنسي، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر. تعلّم العربية والتركية والفارسية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة، وشارك في عمليات التنقيب الارولوجي في العراق (1907 – 1908) اكتشف قصر الأخيضر.[8] درس في الجامعة المصرية القديمة (1913) وخدم في الجيش الفرنسي خمس سنوات خلال الحرب العالمية الأولى. اهتم بالتصوف الإسلامي، ودرس الحلاج دراسة مستفيضة ونشر "ديوان الحلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية مع "مصطلحات الصوفية" و"أخبار الحلاج" و"الطواسين"، كتب عن "بن سبعين" الصوفي الأندلسي، و"سلمان الفارسي"، تولى تحرير "مجلة الدراسات الإسلامية" وأصدر بالفرنسية "حوليات العالم الإسلامي" حتى عام 1954.[9] كان موضع شبهة، في آرائه وتصرفاته وأقواله. ارتبط اسمه بالاستعمار الفرنسي للشرق العربي وكذلك حملات التطهير للبسطاء والأميين. تعرض للتوقيف من قبل السلطات العثمانية في أيار 1908، اتهم (بالجاسوسية) وسجن وهدّد بالموت، ويذكر أيضاً نوعاً من الرؤيا الروحية حيث يقول: "رأيت ناراً داخلية تحاكمني وتحرق قلبي وكأنني أمام حضور إلهي لا يمكن

التعبير عنه، حضور خلاق يوقف إدانتي بصلوات أشخاص غير مرئيين، زارو سجني، التمعت أسماؤهم فجأة في مخيلتي"، أفرج عنه بفضل عائلة من العلماء العرب المسلمين في بغداد توسطت له، قرّر أن يلتزم بدراسة الإسلام عميقاً وجدياً. آمن بـ (فكرة "البَدَليّة"): وتفهم كشفاعة الأنبياء والمُخلصين ومثالها "الحلاج" الذي درسه ماسينيون بعمق وأنجز أطروحة الدكتوراه عنه عام 1914، وقد أظهر فيها تطور المراحل في حياة المتصوف عبر التوبة ونكران الذات والتطهر، إلى نوع من تجربة الاتحاد في ذات الله[10]. وقد طبّق على الحلاج فكرة البدلية وهو يرى أن حياة الحلاج وشفاعة موته من أجل أمته تمتد إلى ما بعد إعدامه. واعتبر أن موت الحلاج نوع من الألم البطولي تحمله من أجل الآخرين، منتمياً بذلك إلى سلسلة البدائل أو الشواهد.[11]

من هو مالك بن نبي؟ يعتبر الاستاذ مالك بن نبي، أحدى الشخصيات البارزة التي عاشت محنة المخابرات الفرنسية داخل و خارج الجزائر، نظمت لدراسة افكاره، ندوات وعقدت من أجله مؤتمرات، وأعدت فيه عشرات الرسائل من مختلف الجامعات لكن ما يلفت انتباهنا في سيرورة حياته، أنه كان شاهدا على جرائم الفرنسيين ضد المثقفين الجزائريين، كما يعتبر معلما للباحث في الأرشيف في سلسلة العمليات المخابراتية، وتوظيف الفرنسيين للمثقف الجزائري ضد وطنه، تحت اسم "الاندجينا"، انكشاف الحقيقة امام مالك بن نبي جعله ينظر الى الواقع، نظرة مخالفة وجديدة عنه، فالتعريف به، أو التقديم له، هو ما قاله في ندواته الأسبوعية الخاصة التي كان يعقدها في بيته، مما لم يذكر، او ما كتبه في مذكراته ولم ينشر، وكلتا الصفتين أو الحالتين تنطبقان على هذا العمل.

رحلات مالك بن نبي داخل الجزائر:

كانت طبيعة العمل في المحكمة تفرض على مالك بن نبي التجوال في الريف، التابع للمنطقة التي يشتغل فيها، كان ينقل في رحلاته صورا عن طبيعة المجتمعات الريفية، في نمط معيشتها و ثقافاتها، و باختلاف مدة الرحلات، كان يقتضي منه الأمر المبيت، ثم التعرف أكثر عن طبائع القبائل في ظل المأساة التي كان يعيشها أفراد مجتمعاتها في ظل السياسة

التدميرية المنتهجة من طرف الفرنسيين. شملت صلاحيات محكمة تبسة، محلات أولاد سيدي يحي، ومواطن الركاز في الكويف والونزة، تعرف على عدات القبائل وصور الحياة البدوية، واختلافها عن حياة سكان قسنطينة. يقول مالك بن نبي:" انما في البلاد الاسلامية وحدها، ولا سيما في الجزائر تسلم قواعد الحياة المكتسبة في غضون القرون من الاظطرابات، ولا تفقد جدارتها في أي ظرف لدى الفلاح(...) أيما رجل نأتي لننفذ فيه حكمنا، لمحنا من بعد وهو يعرف لم نأتي، ولكن سرعان ما يقول لامرأته أن تعد تعد القهوة للأضياف، فنحن أضيافه. أن ذلك الجيل العتيق الذي كان يلبس اللباس الفضفاض، ويأكل أكلا بسيطا لم يكن يحب التصنع".[12]

عرف مالك بن نبي من سكان الريف في تبسة، استسلام الانسان لمعنى القضاء والقدر، وقبول ما زودهم به مشايخ الكرم ودعاة الدين. أما في أخباره عن آفلو جنوب العاصمة، ومنطقة الهضاب العليا، جبال الأطلس الصحراوي وجبال العمور، تعرف مالك الى أهل القرية التي عينته النيابة فيها (عدلا)، وسبب اختيار مالك لآفلو من بين الخيارات الثلاثة، المرتب المحترم (ستين فرنكا)، وقربها من الأغواط الواقعة على "طريق تومبكتو"، آفلو (هي مرحلة الى تومبكتو)، كان خوفه من سكان منطقة آفلو بسبب لهجتهم المحلية التي سمعها و هو في الطريق الى المحكمة، زال شعور الخوف بعد وصوله اكتشف طيبة السكان وحسن ضيافتهم ومعاملتهم، استقبله القاضي "بن عزوز"، كان مالك ضيف دائم عنده، طيلة مدة عمله في المحكمة، ولدت لديه الرحلات التي كان يقوم بها مع الشيخ، معرفة تلك البلاد وطبيعتها، كان قلقا من وصول المستدمر لهذه المناطق التي لا زال افرادها على الفطرة، كان يحث الأهالي على خدمة الاراضي واستغلالها قبل مجيء المستدمرين والاروبيين لينتزعوها منهم ويدمروا فطرتهم السليمة.[13]

يذكر مالك بن نبي، وهو مستاء من استسلام المرابطية، ثم الوقوع في شراك الطرقية، التي كانت تستنزف ثرواتهم من خلال طلبهم الزكاة لمقدمي الطرق، المتميزين بالاحتيال والاستغلال، سادت روح المرابطية، الاستغلالية، وغاب عن المنطقة صوت الاصلاح، فكان مالك أول من أدخل مجلة "الشهاب" الى آفلو، كان يقرأها مع ابن

القاضي ابن عزوز . بعد عودة مالك الى قسنطينة، زار ابن باديس في مكتبه، وكان حاسر الرأس، ويرتدي لباسا اروبيا، لم يدعه ابن باديس للجلوس كما انه لم يكترث لكلامه، خرج من عنده و قد اصيب بخيبة أمل. عاد مرة اخرى الى آفلو لكنه قدم طلب التحويل الى شلغوم العيد، قبل طلبه، ودع أهل آفلو، يقول في ذلك:" لكني كنت أحمل بين جنبي ألما: ما كانت آفلو لتستطيع أن تطامن منه، فكان رحيلي ضروريا ".[14]

بعد طلب التحويل المقبول الى شلغوم العيد التي كانت تسمى في ذلك الوقت "شاتودان"، القرية الصغيرة الواقعة جنوب غرب قسنطينة، على الطريق المؤدي الى سطيف. كانت "شاتودان" مغايرة لآفلو، مركز استدماري، خاضع للقوانين العسكرية الفرنسية، قال عن ذلك مالك:"تصوروا في تلك الحال أنكم كنتم تسكنون في بناء كبير رائع، دارا كبيرة تدخلها الشمس، حيث ترون طير السماء صافات، ونجومها، أجدني في ذلك الوضع – على وجه التقريب - منذ وصولي الى شلغوم العيد".[15]

اختلفت الضيافة في شلغوم العيد عنها في آفلو، لا كرم ولا ترحاب، جعل من قاعة وثائق المحكمة محلا له، أما بالنسبة للاطعام، فكان يأكل في مطعم (يهودية) كان زبائنه من طراز من لا يستطيع الخول الى المطاعم الاروبية. كان يتجول مع ثلاثة من زملاء العمل، كان وسطا مرتعا، كان يركن لمدة زمنية مع زملائه في احدى المقاهي، كان المكان مرتعا خصبا للمفاسد الاخلاقية، نجا من ذلك الوسط بأعجوبة، تتلخص الثقافة في هذه القرية في شرب الخمر، ولعب الورق، قصص الأشباح، لا معنى للانسانية، الا المرأة اليهودية، صاحبة المطعم، التي تعيل زوجها السكير، أولت مالك بن نبي رعايتها له، تسأله عن نوعية الطعام المفضل لديه، تحزن كثيرا عندما يخبرها أن طعامها جيد، لكن لا ذوق له هو في الأكل. انتهت المغامرة في "شاتودان" بالاستقالة من المحكمة بعد أن تأزم الموقف بينه وبين كاتب محكمة الصلح لأسباب شخصية (لا يرد السلام على مالك) ثم عاد الى تبسة.[16]

السفر الى فرنسا:

كانت رحلة مالك الى فرنسا منعطفا معرفيا وانثروبولوجيا، فالكشف عن طبيعة المستدمر الفرنسي، والانسان في فرنسا، ثم الكشف عن الحقائق التي يدبرها الأمن الفرنسي ضد المغاربة عامة والجزائريين على الخصوص، كانت الرحلة سنة 1925م السنة التي تخرج فيها من المدرسة في قسنطينة، في سن العشرين من عمره، واصطحب في رحلته، صديقه (قاواو). كانت بداية الرحلة، مع موعد شاهد فيه البحر لأول مرة في حياته، كانت الطريقة التي يسافر بها الجزائريون، عن طريق التهريب من طرف طاقم السفينة، كان يزج بالعمال الجزائريين، الذين يطلبهم سوق العمل الفرنسي، وسط البضائع هروبا من المراقبة الأمنية، بنيت آمال مالك بن نبي، كغيره من الجزائريين، الظفر بعمل لائق و مرتب محترم، تحققت مخاوف مالك بعد أن نفذت الأموال منها قبل حصولها على عمل، كان بؤس الجزائريين في مارسيليا، أكبر دليل على واقعهم، يظهر أن هذه المدينة المكتظة بالجزائريين، لم تعد تنفع، قرر مالك السفر مع زميله الى مدينة "ليون" غرض اقتناص فرصة العمل، لكن الحظ كان سيئا و لم يوفق في العثور على ظالته، فسافر الى مدينة " نوتردام دولورت" واشتغل في مصنع الاسمنت، ثم مصنع الأجر، لكنه لم يتأقلم مع بيئة المدينة، وانتقل الى باريس، عمل في مصنع مع صديق له، لكنه لم يحتمل، ومع نفاذ صبره، كتب لوالديه في تبسة لأن يرسلا له المال قصد العودة الى الجزائر. عاد مالك من باريس ولم يعرف منها الا المصنع و برج "ايفل"، كما لم يتمكن من زيارة "الجامع الكبير" الذي افتتح ذلك العام، في باريس، يقول مالك عن ذلك:" كنا نزال لا نعرف، أنا وقاواو شيئا من كل، في تلك الفترة، ولكني أعرف اليوم أنه كان لكل وزنه الحق في مغامرة المدرسيين الفارين من الجزائر".[17]

يرجع مالك بؤس الجزائريين في فرنسا الى السياسة الأمنية، والسبب مثلما يرى مالك، توجس السياسيين الفرنسيين من هجرة اليد العاملة الجزائرية، المستقدمة من الجزائر، وغفلة الرقابة من مخاطرها، ثم قلق الرأي العام الفرنسي من فعل تأسيس الأميرخالد جمعية (النجمة المغربية) بعد الهجرة الى باريس، اثرحكم النفي، كما أن خوف مصالح الصحة من

الأمراض التي ينقلها الجزائريون الى فرنسا، جعلتهم يحددون الهجرة، اضافة الى الهجمات العنيفة التي قادتها الصحف الفرنسية ضد الهجرة، خاصة الصحف اليمينية المتطرفة. كان ذلك من الأسباب، التي يرى مالك، انها سبب في فشله وزميله قاواو من العثور على عمل والاستقرار في فرنسا.[18]

لم يبق الحال على حاله، جاءت فكرة الدراسة في فرنسا، خلافا لرحلته الأولى التي جاءت قصد العمل، يقول مالك:" لقد عزمت على السفر(...) ولم يكن ذلك شوقا الى البعيد (...) بل عزما، وجزما وحكما، وكنت أخفي مشروعي عن أمي، ولكن لا يمكن اخفاء شيء عن قلب الأم ".[19]

بدأ الأمر بالفعل عندما اقترحت عليه والدته عليه السفر الى فرنسا للدراسة (اذا اراد ذلك)، وافق والده ووعده بأن يرسل له كل شهر ما يحتاجه من المال. كانت الفرصة ذهبية، وانطلق الى فرنسا بعد ثلاثة أيام من ذلك، حرص على المضي قدما دون تراجع، يقول في ذلك:"لم تكن الأمور تقررت نهائيا في نفسي منذ فارقت - قبل اسبوع - أهلي وودعت الأقران بتبسة، وانما الشيء الوحيد الذي قررته هو أنني لا أعود هذه المرة الى الوراء مثلما عدت المرة الأخيرة، بعد النكسة التي أصابتني مع رفيقي قاواو في صيف 1925".[20]

اختار مالك سكنا بعيدا عن (الحي اللاتيني) الذي يسكنه الطلاب القادمين من بلاد المغرب الاسلامي. كان سعي مالك في الحصول على سكن في الجهة التي قصدها، غير هين، فأستقر في نزل متواضع، يعج ببنات الهوى وبنات السوء، لم يصدم مالك بدعوات العاهرات والرخيسات، رغم أن دعوتهن له كانت تقرع الآذان. كان الوجه السيء للعادات الفرنسية، دعوة لاكتشاف هوية المستدمر وخلفياته الثقافية وعاداته وتقاليده السيئة، كان يبحث عن أفق جديد، الكشف عن معنى الانسان الفرنسي وتعريته في عقر داره، كانت محاولاته ندريجية وغير جريئة. بدأ نشاطه في باريس باكتشافه لمعهد الدراسات الشرقية، سجل اسمه بداية نوفمبر، كان له من الوقت ما يكفي ليكتشف عالم المستدمر من الداخل، يقول في ذلك:" ان للفصول طابها النفسي (...) فالخريف يحدث النفوس بالوداع والحنين،

وربما كان هذا الشعور يلتئم مع وضعي في تلك المرحلة الانتقالية، بين ماض قريب ومستقبل لا يزال غامضا".[21]

بدأت استقراره، بضبط مطعم، من أجل الغذاء، كان زبائنه من العمال، استغل فرصة التأمل في ما يراه من حوله، قصد التعرف أكثر عن وضعية الفرنسيين وغيرهم ممن هم في مجال تعرفه، اختار مقهى للجلوس، يرى المارة لكنه لم يدرك الروابط التي تجمعهم، لكن السعادة بادية عليهم، واطمئنانهم ظاهر على محيطهم. اكتشف متحف للفنون والصناعة، ثم سوق الكتب المستعملة، اتسعت دائرة اكتشافاته، ونضجت عنده الجراة، تعرف على (الميترو) وعلى ميدان (الكونكورد) فلولا تحذيره من طرف الغير، لكان قد فقد حياته، في هذه المرحلة المذهلة، بدأ يعرف من هو الخصم، الذي قدم لمعرفته، التطور الحضاري، النظام، وكل ما يفسر استعباد الفرنسيين للجزائريين. اكتشف مالك وحدة الشباب المسيحي، قاده لذلك المكان، اعلان اهل البيت عن تقديم وجبات بأسعار منخفضة، ذلك هم مالك في هذه المرحلة، غرض توفير المال، كان السؤال عن السعرللوجبة، ما كشف له عن الجمهورية التي يديرها السيد (نازيل)، نظمت الوحدة تنظيما دقيقا، قاعة للأكل، واخرى للتدخين وقاعة لقراءة الصحف، الى جانب قاعات تقدم الزاد الفكري والروحي في مناسبات تقدمها الوحدة.[22]

كان على المنتسب للوحدة، ان يتقدم بطلب، ومن بين بنود البطاقة ذكر الديانة، يقول في ذلك مالك:" كانت اللحظة تعرضني لأول اختبار اخلاقي يواجهني في العالم الجديد، أصبحت اعيش فيه. لقد كنت خلال زيارتي الأولى لفرنسا أدعى (يوليوس) في الرهط الذي جعلهم اليهودي القسنطيني تحت يده، ولم يكن ذلك عن اختيار مني أو طواعية، بينما لم أكن هذه المرة أمام من يريد التصرف في ضميري، وانما أمام ضميري فقط (...) فذكرت ديني بكل وضوح. أصبحت هكذا عضوا مسلما في الوحدة المسيحية، وما كان لأمر كهذا أن يكون عاديا في سجلات بالمنظمة".كانت بداية حياته في منظمة الوحدة المسيحية، انعزالية، ككل جزائري وجد نفسه في وسط اروبي، وعده مدير الوحدة، بأن يعرفه على مجموعة من الأصدقاء، يقول مالك: "عرفني نازيل فعلا كما وعد في الوقت المحدد، على

بعض (الوحدويين) الذين أصبحوا أعز أصدقائي، و غدونا لا نفترق، بحيث كونت جماعتنا في نظر الآخرين ما أسموه (المجموعة). لقد كانت مجموعة ذات تركيب متنوع، وعروق متباينة، كان (حنوز) شابا جزائريا من عرق بربري، اعتنق المسيحية وهو طفل يرتع مع اقرانه في جبال القبائل، وكان (مرسولين) من ناحية نورماندية جريئا لبقا مثل أهل عرقه، عاش يتيما في مسقط رأسه قبل أن ينزح الى باريس، حيث تبنته زوجة أحد النبلاء. هذه المرأة النبيلة التي مرسولين، قد تبنت المجموعة كلها، وكان من بينها ريمون الذي تزوج في شرق فرنسا بعد وفاة ابيه، كانت ميزته الصمت كما كان رقيق الشعور، بوصفه ابن عائلة مؤدبة، ثم جان سانشيز من عرق اسباني، ثم (بنيجن) الجرماني الأصل وآخرون، فأضاف مالك بدخوله معهم عنصرا جديدا الى المجموعة، ربما كان أغريهم لأنه مسلم جزائري."[23]

تعرف على الجانب الروحي في المنظمة، في الحياة الاروبية، يقول في ذلك:" كانت اتصالاتي داخل الوحدة تكشف لي عن الجانب الروحي الذي لم أكن المسه البتة في الاطار الاستعماري، كأنما الموظف الاداري الذي يمتطي الباخرة بمرسيليا متوجها الى الجزائر، يتجرد من كل ميزاته الحضارية". أضاف في سلسلة اكتشافاته، التعرف عن طري صديقه (رينيه) التعرف على أسر الاروبيين، حيث كان يرافق صديقه الى أسرة خطيبة (رينيه) يقول في ذلك: " كانت أسرة برجوازية بكل ما تتضمن الكلمة من جوانب مدح أوذم في تلك الفترة التي كانت فيها البرجوازية هي الأمينة على تقاليد المجتمع الفرنسي، والمحافظة على كل سخافاته في آن واحد. فكانت زياراتي الى هذه الأسرة مع صديقي رينيه تكشف لي عن الحياة الأروبية من الداخل في نطاق عائلي، بينما لم أكن في الجزائر أعرفها الا من خارج".[24]

تشكل في ذهن مالك مجموعة من الانطباعات، تمثل معلومات أولية عن المستدمر، وعن الوسط الجديد. فشل مالك في امتحان نهاية السنة، وجاءت النتيجة غير متوقعة، السبب الوحيد، انه مسلم ومن الجزائر، دعاه مدير المعهد وحاول اقناعه عدم جدوى محاولة الدخول الى المعهد، النتيجة معرفة حقيقة الاحتقار الذي يلقاه الجزائري المسلم من طرف الفرنسيين، كان ذلك دافعا لدى مالك لتحويل الاختصاص. اخفاق مالك في الالتحاق

بمركز الدراسات الشرقية، لم ينقص من عزيمته، نبهه صديقه رينيه للالتحاق بمدرسة اللاآسلكي، بادر التنفيذ، وتقدم للالتحاق بالمدرسة. غير التخصص الى ميدان الكهرباء والميكانيك، وذلك بناء على توصية مدرس الرياضيات، أنهى دراسته وهي تخول له الحصول على شهادة مهندس كهربائي، غير انه تعذر عنه ذلك، والأسباب المراقبة الخفية لأمن المستدمر، التي حالت دون ذلك. التحق بعد ذلك بمعهد تابع للفنون والصناعة، لدراسة الكيمياء التطبيقية (دراسة ليلية)، ودرس علم المساحة بالمراسلة في مدرسة الأشغال العمومية، كان مالك يقوم بهذه الدراسات الى جانب الحلقة التي تقام في منزله حمودة بن ساعي والصالح بن ساعي، في موضوعات متنوعة.[25]

اللقاء مع حمودة بن ساعي:

عرف المفكر الجزائري حمودة بن ساعي مصيرا تعيسا، فرغم دراسته في جامعة السوربون في العشرينيات من القرن الماضي، كان صديقا وأستاذا للمفكر مالك بن نبي باعتراف هذا الأخير في مذكراته وبعض مؤلفاته الأخرى، إلا أن الأوضاع المتأزمة التي مر بها انتهت به إلى جحيم التهميش ودائرة النسيان. توفي حمودة بن ساعي عام 1998 عن عمر يناهز 96 سنة من مواليد 1902 دون منزل يؤويه رغم أنه كان مثقفا مزدوج اللغة، وفضل أن يوظف اللغة الفرنسية كغنيمة حرب، كما يملك معرفة عميقة في الثقافتين الإسلامية والغربية، وحاضر في فرنسا في نادي الترقي بالجزائر العاصمة، وهو ما جعل العلامة عبد الحميد بن باديس يقول انه من أفضل شباب وتلامذة جمعية العلماء المسلمين الذين درسوا في فرنسا.[26]

جمع العديد من المهتمين بفكر بن ساعي أنه كان يؤمن بالفعل الثقافي، وبفضيلة الحوار، وكان يعطي أهمية قصوى لدور النخب، لكنه مات في عزلة بعيدا عن الأضواء، حيث ترك عددا من المقالات والمؤلفات، إضافة إلى مذكراته التي لم تنشر، وهو ما جعله أحد المفكرين الذين لم تستفد منهم الجزائر رغم أنه لفت الانتباه مطلع القرن الماضي طالبا ومفكرا، فقد شد الرحال إلى فرنسا بعد أن أنهى دراسته في قسنطينة، وحصل على شهادة في الفلسفة من جامعة السوربون، وهناك تعرف على عدة مفكرين، وتوطدت أواصر الصداقة مع

أندري جيد. وكان بمقدور بن ساعي الذهاب بعيدا في مساره الفكري والفلسفي، لكنه ذهب ضحية التهميش حتى من بعض مقربيه، مثلما تشير العديد من الكتابات التي أجمعت على زهده وسعة آفاقه التي لم تجد من يبلورها، أويخرجه على الأقل من دائرة التهميش والنسيان. عانى حمودة بن ساعي من ويلات التعذيب الجسدي على يد الاستعمار الفرنسي، ما تسبب له في عاهة على مستوى ظهره لتزيد متاعبه أكثر عقب الاستقلال، حين عاش معزولا دون منزل يؤويه مكتفيا بمهنة كاتب عمومي بإحدى المقاهي الشعبية، تحركت في السنوات الأخيرة بعض الأقلام التي حاولت تسليط الضوء على أعماله غير المنشورة، وفي مقدمة ذلك الأستاذ نورالدين خندودي الذي نفض عليه الغبار في كتاب جمع العديد من أفكار بن ساعي وشهادات من عرفه عن قرب، في الوقت الذي تجاهله الحقل الثقافي بشكل غير مفهوم، رغم أن الكثير يعترف بكفاءته العلمية، بدليل أنه ناقش مستشرقين فرنسيين أمثال ماسينيون، وكان صديقا حميما لـ"أندري جيد"، وكان من أقرب المقربين لمالك بن نبي الذي وصفه هذا الأخير بـ"أستاذي وصديقي حمودة بن ساعي"، وأهدى له خصيصا كتابه المعنون "الظاهرة القرآنية".[27] التقى حمودة بن ساعي، في مركز الطلبة الوحدويين، شارع (لو درو رولين) الذي أسسه الوحدويون، كان قد أعلن انضمامه اليهم، حينما اتصل بالحي اللاتيني، الذي كان قد رفض السكن فيه أو الاتصال به، بعد وصول (عبد المجيد خالدي) احد اصدقائه من تبسة، عقد صلة بينه وبين الحي اللاتيني.

يقول بن نبي : هناك نوعان من الاهالي: نوع الخونة الواضحين، من أمثال (الدكتور بن جلول) وهو صنف يقتات من أموال الاستعمار ومن ازدراء الشعب، ثم صنف الخونة المترفين، الذين يعيشون من اموال الشعب باستغلال جهله، فالطبقة الاولى اقل احتقارا واقل خطورة لأن خيانتها جلية ظاهرة، يقول بن نبي : "لماذا ولدت في الجزائر حتى اكون أحد ارهاصات النظام الجديد، واصبح انسان يواجه وحوش القابلية للاستعمار والاستعمار؟ لا ادري و انا مسلم مؤمن بالقدر ومتقبل للمصير الذي منحني الله خالقي الذي اعبده واذكره. اني ادرك فقط مدى معاناة انسان جاء قبل زمانه او بعده، اني اعرض ببساطة امورا اعرفها لأني عايشتها، رأيتها وسمعتها و تأملتها".

ما هو الحي اللاتيني:

كان الحي ميدان صراع بين الطلبة، الذين يدعون الى الوحدة بين أقطار المغرب العربي، ويمثلهم من تونس (صالح بن يوسف) و (تامر) و(سليمان بن سليمان) ومن مراكش (بلفريج) و (محمد الفاسي) وبين الطلبة المعرضين للوحدة. يقول مالك بن نبي: "دعوت في الحي اللاتيني للاصلاح ، والوهابية، والوحدة المغربية أي للشعارات المختلفة، التي كانت تعطي معنا واحدا: الاسلام".[28]

شهد الحي اللاتيني مبعث منظمة (نجمة شمال افريقيا) على يد مصالي حاج، ودخل في الاجتماعات الأولى، وشارك في حفل الاعلان عنها. تعرف مالك على جريدة "الأمة العربية" الصادرة عن "شكيب أرسلان" من جنيف و"فريد زين الدين" المكلف بدعوة الطلبة العرب، في باريس غرض تأسيس جمعية (الوحدة العربية)، انضم مالك الى الجمعية، ممثلا الجزائر و(ابن ميلاد) ممثلا لتونس رفقة آخرين، أما مراكش فيمثلها (محمد الفاسي) و(بلفريج) و(الطوريس) أما سوريا ولبنان فكانتا ممثلتين في شخص (فريد زين الدين) وبعض مواطنيه الشعراء، ممن يمجد العرب بداية و نهاية كل جلسة[29]، يقول مالك عن ذلك:"كانت هذه الجلسات "السرية" تجري مداولاتها في قاعة مقهى فرنسي، على مرأى ومسمع من البنات والشبان المشتغلين في القاعة. فنستمع لقطعة بلاغية أوشعرية، تترك في النفوس موجة حماسية، أشبه بالموجات التي انطلقت من (صوت العرب) وهزت النفوس قبيل حزيران/يونيو 1927م، وكان من أسوأ آثار تلك الموجات انها لا تفقد المستمع وحده الشعور، بل تفقد (...) المتكلم {أحيانا شعوره، كما} حدث يوما للطوريس، اذ انطلق في صولة كلامية أثارت تصفيقنا، فصفق هو معنا". كان الحي اللاتيني بمثابة صدى العالم، يمثل صلة بين مالك والعالم، كما كان مقهى "الهجار" كذلك. تعرف مالك على (محمد اناكليتو) واستفاد من أفكاره، وتعرف على البعثة الأزهرية المشكلة من الدكتور (عبد الله دراز) والشيخ (عبد الرحمان تاج) ثم احتك بالقضية اليهودية.[30]

حقيقة المشروع الانثروبولوجي الفرنسي:(تحليل النتائج)

شبه مالك بن نبي العلاقات التي تجمع "الاخوية" المغاربية، في الحي اللآتيني، بشبكة العنكبوت التي نسجتهاالمخابرات الفرنسية، في ذلك الحي، وقع أبطال الحركة الاصلاحية في مصيدة "ماسينيون"، فالمشروع الذي رسمه من قبل "شارل دي فوكون" نراه يتجسد في شخصيات جزائرية ومغاربية، تم اختيارها من قبل، وعملت المخابرات العسكرية والسياسية الفرنسية، على توجيه التحقق للمشروع، والعمل على تطويع الكفاءات المختارة، بطرق اللين وتسهيل الظروف الاجتماعية، اذا ما كانت الاهداف تتحرك وفق، الغايات التي رسمتها الهيئات السياسية و العسكرية. لكن كيف تمت عملية تجهيز وجمع الطاقات البشرية بهذه الصورة العجيبة في دقتها؟

للاجابة عن السؤال وجب العودة الى ما قبل سنة 1916، ونتحدث هنا عن الاسباب الحقيقية، التي جعلت المستدمر الفرنسي يفكر في مسح هوية المجتمعات المغاربية والجزائرية على الخصوص، فان الدافع الاساسي الذي كشف عنه "مالك بن نبي" يرجع الى القيمة الدينية، التي يتميز بها سكان شمال افريقيا، فالدين الاسلامي، يحث على الجهاد و دفع العدوان، ويمجد فكرة الاستشهاد التي يهابها الاروبيين عامة و الفرنسيين على الخصوص.

لم تجد فرنسا حلا مناسبا للاستمرار في حكم الجزائر، الا من خلال مشروع ايديولوجي مؤسس على منهجية علمية دقيقة، تسمح للفرنسيين من الولوج الى اعماق الهوية لسكان شمال افريقيا، الذين كان سوادهم الأعظم مركب من البدويين الرحل، الذين تصعب السيطرة عليهم، وهم طلقاء في الطبيعة. كان من الضروري العثور لدى (الانتلجنسيا الاستعمارية) عن وسيلة تتيح لهم الولوج الى اغوار المركب الاجتماعي، وتمكنهم من دراسته ومعرفته، قصد التحكم فيه وتغييره. ثبت عند مالك بن نبي ان الاستعمار الفرنسي استعمل (السلاح الانثروبولوجي) في تفكيك المجتمعات المغاربية، وكانت الاهداف محددة من قبل، (التنصير، طمس الهوية، تفكيك الاسرة، تدمير المقدسات وتحريفها، تلويث النسل،...) وكل ذلك، لأجل صناعة مجتمع، " تكون له القابلية للاستعمار" على حد ما جاء على لسان مالك بن نبي، فالمشروع الذي يسعى ماسينيون

لاكماله، هو نفسه المشروع الذي بدأ مع شارل دوفوكون، والمتمثل في تدمير المجتمعات المغاربية من الداخل، من خلال التسلل الى جوهر العلاقات الاجتماعية والكشف عن طبيعة القوانين التي تتحكم في سلوك، سكان شمال افريقيا. وجد -من قبل- دوفوكون (قبل مصرعه على يد الطوارق) ان مجتمع هؤلاء صعب الاختراق، فالسنوات العشر التي قضاها في الصحراء بين السكان، ومحاولاته الكثيرة للتغلغل داخل العلاقات الاجتماعية، لم تسمح له (حصانة البيئة الاجتماعية للطوارق) من الانفلات الى داخل بيئتهم. فرغم التكوين الذي تلقاه في بلاد الشام، وتركيزه على (فلسفة الحلاج)، التي ذاع صيتها من قبل لدى الطرقية المنتشرة بكثرة في شمال افريقيا وتفاعل وتجاوب سكانها مع الصوفية، الا أن شارل دوفوكون لم يفلح في عملية العبور، ولم يكسب ثقة الطوارق، ما جعله يهلك على ايديهم. بعد فشل منهج دوفوكون، (الانثرويولوجيا الاستعمارية السلمية)، التي استعمل فيها اساليب علمية، مؤسسة على المعرفة للعلوم الانسانية والاجتماعية، جاء ماسينيون باسلوب مغاير وعنيف، وركز فيع بخلاف معلمه دوفوكون، على مناطق الشمال وابتعد عن الجنوب المغاربي بصفة عامة، ركز ماسينيون على المناطق الريفية الجبلية والمدن والقرى، لسببين اساسيين، الاستقرار الذي تعيشه المجتمعات التي هي قيد الدراسة، والضمانات الامنية التي تعمل على تسهيل العمليات و التجارب العلمية المقررة في مشروع ماسينيون، ففي القرى و المداشر و المدن و المناطق الجبلية، توجد على العموم ثكنات عسكرية، مرفقة بأسلحة الدرك، التي تعمل وفق اوامر السياسيين وعلماء الاجتماع، لتطويع الاهالي وتفعيل الفرضيات المقدمة من الانثروبولوجيون للتحقق التجريبي، وبذلك اصبحت مجتمعات شمال افريقيا، فئران تجارب للمختبرات الفرنسية.

بدأ ما سينين تطبيق المنهج العلمي الانثروبولوجي، بعد ادراك الفرنسيين، سنوات (1907-1916) بعد اقرار قانون التجنيد الاجباري على سكان شمال افريقيا، والخدمة في الجيش لصالح الدولة الفرنسية، ورفض الاهالي للقانون ثم التمرد من خلال اضطرابات سنة 1912 التي فجرت المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين والاروبيين في الشرق الجزائري واستمرارها وانتشارها على باقي مدن وقرى التراب الجزائري وباقي اقاليم شمال افريقيا،

واجهت فرنسا المقاومة بالعنف المادي والنفسي، وتقرر انذاك لدى الفرنسيين من ضرورة كسر ارادة وشخصية الاهالي بكل الطرق.

(من اهم الخطوات التي باشر فيها الفرنسيون- خصوصا بعد استسلام الالمان وانتصار الحلفاء- مضاعفة القوة العسكرية، وفسح المجال للاعراف العامة، فاصبحت السلطة مركزية عسكرية، فعمليات التوقيف والسجن وجمع السكان في المحتشدات من جهة، وتسليط القوة العسكري- الاجنبية من السينغال و غيرهم- على النساء والاطفال في الارياف والقرى والمدن، وما لحق ذلك من الاعتداءات على الشرف واغتصاب النساء امام من مرأى، الرجال، لكسر ارادتهم واهانتهم في مقدساتهم، كانت صور الفساد من الانتهاك والتشريد والقتل والقمع، وتأميم الاراضي، وطرد الفلاحين، صور توحي بالمستقبل المشئوم الذي يسير اليه جمهور الاهالي. جاءت الممارسات القمعية للسلطات الفرنسية، ايذانا بانطلاق مشروع ماسينيون، لجأت السلطات الفرنسية الى قرارات توجب على اسر المدن والقرى والارياف ضرورة تدريس ابنائهم في المدارس الفرنسية (هنا يطرح السؤال هل المتمدرسين لدى الفرنسيين ابناء الاهالي بالفعل، ام انهم ثمرة مشروع ماسينيون الذي عمل على تهجين جيل جديد، يدافع عن فرنسا ويطلب بقائها في بلاد شمال افريقيا؟) كانت المسألة صعبة وشاقة على الطرفين، من جهة الاهالي نجد الحديث عن الاسرار الدفينة، التي لا تقبل البوح، ولا يتحدث عنهاأحد، ومن الجهة الأخرى، لدى الفرنسيين، كان السؤال كيف يمكن المحافظة على الجيل الجديد؟ وكيف يمكن الوصول به الى بر الأمان؟

كانت هذه الصورة من ابشع الصور التي واجهها الأهالي، وبقيت دفينة في اعماق الجيل المزدرى، الذي كتب عليه القدر، السير في واجهة التاريخ، محملا بأثقال، لم يكن قد اختارها بحريته.)

في لقاء، بين حمودة بن ساعي ومالك بن نبي يشير، اليه بن ساعي قائلا: "ان السيد ماسينيون يرغب في لقائك؟" لم يفهم مالك، المقصود من ذلك، كان خوفه من مصيره ومصير عائلته، بن ساعي أخبره بطبيعة الحال (بومنجل) وأكد له ذلك. حاول مالك معرفة العلاقة الموجودة بين اطراف الحلقة، لأن بومنجل في الحقيقة، يمثل الستار بين (المستعمر

والقابل للاستعمار)، بين المخبر الذي يتقمص هيئة"العالم" و"الوطني" الذي سيرفع ويعلى شأنه في ما بعد الى منزلة "البطل" الجزائري.[31] كان الوضع في باريس سنوات 1932 يموج بالطلبة الافارقة، والاهالي من المستعمرات الانديجان، ومن بين المثقفين، يتحدث مالك، عن شخصية (شريف مشيري)، الذي حسبه هومن دشن مسلسل الخيانة الفكرية، ظفر بمنصب (بريفي) نائب الوالي، يصفه مالك بالمذلة التامة، مواصلا سيره، كلما التمس مزية لاحد اقربائه في تبسة. يرى مالك انه المسؤول كذلك عن الهجوم الذي تعرض له الاميرخالد من طرف جريدة (الجمهوري) le repulicain التي كانت ملكا لـ(مورينو) النائب عن مدينة قسنطينة ورئيس بلديتها. لقد فتح (مشيري) الطريق لباقي الطلبة للسير على خطاه، كان لكل منهم(الطلبة) طريقة للفوز بمنصب نائب الوالي، نجد (ابعزيزن) الذي اتم دراسته للعلوم القانونية، قد تنصر واعتنق المسيحية، كما ان هناك من تفرنس مثل ما هو شأن (حسين لحمق) الذي اتم دراسته ونشر كتاب عنوانه "algeriennes" (رسائل جزائرية) يقول مالك عن الكتاب: "كتاب تولى الاباء البيض انفسهم الترويج له وبيعه لزوار "معرض الاستعمار" فقد كان عملا خسيسا موجها ضد الاسلام، كما استخلصتم دون شك".[32]

كما تحدث لنا مالك عن شخصية (الدكتور موفق) الذي سخر للاستفزاز، والعرقلة الادارية، ثم تتحدث عن (نارون) الذي كلف بتشتيت الطلبة وزرع الفرقة بين الجزائريين قصد ترأسهم، اما الجماعة التونسية فهي خفيفة الظل وودودة، ذلك قبل نسف الجماعة من طرف "بورقيبة". من أهم عناصرها نجد (بن سليمان) طبيب، وشخص (بن ميلاد) تولى زمام الامور لجماعة تونسية، كأنه يستعد أن يكون رئيسا في ما بعد، ثم تحدث مالك عن شخصية (بن يوسف) الذي قال عنه انه كان يبتهج عند الحديث عن الاسلام، اما (بن لهوان) فكان ماديا ملحدا، مشوش الافكار، وكان (الهادي نويرة) يتدرب على خطاب الرآسة، وذلك ظاهر من خلال نبراته المتميزة بالرجة، في حين كان (ثامر) يشع طيبة، ترهص لاستشهاده.[33]

اما المغاربة، فيتميزون بالغموض، وكان (محمد الفاسي) يرأس "جمعية طلبة افريقيا الشمالية" متريثا في قراراته، يزن القضايا المطروحة، يتأنى، وهو يلهي نفسه بكيس التبغ، انه يتصرف وفق تجارب الاجيال الماضية، فهو بطبيعة الحال من تجار فاس، عاشر الامراء، أما شخصية(بالافريج) فهو التابع الامين، شكل مع رئيسه نواة الحكومةالمغربية. كان (الفاسي) يدرك علاقة حاضره للمستقبل، استحدث علاقة مع (بن غبريط) ثم مع ماسينيون، في حين كان (توريس) يشكل عصبة وحده، كان يعمل لنفسه، كان حسب مالك بن نبي، خطيبا وطنيا. اما بالنسبة لـ (عبد الجليل) فقد استعبده ماسينيون، وصنع منه تابعا ممتازا في المسيحية، التي كان ماسينيون، رئيسا للحلقة التدريسية والتكوينية في الدين المسيحي (seminaire) غادر عبد الجليل وقد أصبح "الأب عبد الجليل" يقول عنه مالك بن نبي:" كان أجدر الطلبة وافضلهم، قد كان شاهدا على تحلل البرجوازية المسلمة وتعفنها(وكان هو نفسه منتميا اليها)، فلجأ الى المسيحية مدفوعا بمثالية، عرف ماسينيون كيف يزينها له وهو المبتدئ الذي تعوزه التجربة".[34]

حسب التحليل الانثروبولوجي المقارن الذي اتبعه مالك بن نبي، انكشفت له ثلاثة عصبات، الجزائرية والمغربية والتونسية، التي كانت الأنظف والأطهر، في حين كانت العصبة الجزائرية الأقذر والأكثر خسة، وكان المغاربة، أكثر نفاقا وشقاقا واثارة للفتن والازعاج. أما "الساحلي" فلم يتخلى عن قبائليته، عنصر غير منتمي، عزل نفسه عن كل الاطراف بنفسيته ولغته الخاصة. وصف مالك نفسه وصديقه حمودة بن ساعي، بالتيار الاسلامي التوحيدي، الوصف الذي عزلهم عن غيرهم من العصبات، وكان أكثر ما جعلهم يبتعدون عن باقي الفيالق، الجانب الاخلاقي.[35]

قدم لنا مالك بن نبي "طبقة الاندجينا" من الاقاليم الثلاثة من شمال افريقيا، رغم ظهور وجوه جديدة، سنة 1932م. يقول مالك بن نبي:" عندما اخبرني صديقي بن ساعي برغبة ماسينيون في لقائي، كنت اجهل أن جميع الخيوط التي تحرك عالمنا الصغيركانت بين يدي هذا الاخير. كان هو نفسه خفيا متواريا كالعنكبوت في بيتها، ويجب ان اقول، من

جهة اخرى، انني اخذت وعيا في الحين، لماذا تسعى هذه العنكبوت لاجتذابي في شبكتها التي وجد عبد الجليل نفسه سنوات من قبل محبوسا بين خيوطها، مخدرا ومقيدا."[36]

انتبه ماسينيون لوظيفة الجمعيات الطلابية، لمسلمي شمال افريقيا، فسارع الى نشر اللغة الامازيغية واللاّتينية، والفرنسة في شمال افريقيا. في ذلك يرى مالك بن نبي أن وصية دوفوكون، شكلت متابا يهتدي به الموظفين والقساوسة، من كان لهم يد في شؤون المسلمين، سواء ف شمال افريقيا او باريس، وكان ماسينيون منفذ الوصية، كان مضمون الوصية يهدف الى: "تحقيق التحول الاجتماعي والثقافي للشعب الجزائري المسلم، بفعل الفضيلة المضاعفة للاستعمار: (الحضارة الفرنسية والخلق المسيحي) وعلى خط من سبقوه كالكاردينال لافيرجي، كان الراهب دوفوكون متلهفا للمساهمة، وفقا لاسلوبه، في المهمة التاريخية لبلده في المجال الاستعماري".[37] ادرك مالك انه اصبح في مجال اهتمام ماسينيون، وتبين من ذلك بع ان ارسل له غرض الحديث معه، لكن صورة عبد الجليل لم تغادر مخيلة مالك، يقول:"ادركت اذن انه يريد ان يقابلني، لاني كنت بمثابة الذبابة التي يزعجه طنينها، والتي قد تقطع بأجنحتها نسيج بيت العنكبوت التي نسجها. اذ ليس مهم عند عنكبوت من فصيلة جيدة اصطاد الذبابة ولكن القبض عليها دون ان تمس خيوط بيتها باذى. وأؤكد الأمر، فقد كنت انا بمثابة تلك الذبابة التي كانت من دون وعي ربما، فقد كنت انا بمثابة تلك الذبابة التي كانت من دون وعي ربما، تهز بجسارة ونهور الخيوط الغالية لبيت العنكبوت".[38] قام مالك بن نبي بالقاء محاضرة كان عنوانها" لماذا نحن عرب؟" اثارت المحاضرة حفيظة (بومنجل) الذي يمثل الجماعة الطلابية الجزائرية، وجه له وبل من الانتقادات، ولما تحدث عن تاريخ شمال افريقا، عارضه بومنجل ان التاريخ لا يبني المستقبل، وعمق فكرة رفضه في ما بعد عندما كتب في جريدة " الجمهورية الجزائرية" اعلانا سنة 1936م بأن "التاريخ لم يكشف عن وجود أمة جزائرية". المقصود في العبارة التي نبه اليها مالك بن نبي (فرحات عباس) الذي انكر وجود أمة جزائرية، رافق فهم مالك لطرح الطبقة المثقفة الجزائرية، ان اهتمامات مالك لم تشغل بال ابطال الجزائر الآحقين، كان شغلهم الشاغل، السعي وراء منصب نائب الوالي، والغريب لدى مالك، ان معارضة

بومنجل لاطروحته، لحقها في ما بعد دعوة منه لزيارة ماسينيون، ليس رغبة منه اخفاء علاقته بعنكبوت كوليج دو فرانس يقول مالك في ذلك:"كل علاقة خفية هي علاقة آثمة".(39)

بعد نجاح محاضرته والاطاحة بـ (بومنجل) ورفضه مقابلة ماسينيون، ذاع سيطه بين طلبة شمال افريقيا، الى درجة ان عانقه بن يوسف، واشتبك من اجله الفاسي مع بومنجل، وقال الفاسي: "ان مالك حامل عقيدة شمال افريقيا".(40)

شعر مالك بن نبي ان ماسينيون لن يغفر له رفض طلب اللقاء، خصوصا مع ظهوره المتواصل والمقلق، كما ان حاشيته مستاءة، من الذبابة التي لا يكف طنينها، على حد تعبير مالك. بد ايام بدأ تغيير مكتب الجمعية الذي كان مقررا ان يكون مالك رئيس له، بحكم الاجماع، لكن محمد الفاسي اقنع الجميع، من انه من الحكمة ان يتولى مغربي رآسة المكتب، وذلك من تخطيط بلافريج، وبعد جدال تمكن من رآسة المكتب، واقنع كذلك مالك بمنصب نائب الرئيس، لكن مالك تنازل بدوره على منصب نائب الرئيس لصديقه حمودة بن ساعي. اكتشف مالك البارومتر الذي تقاس به الوطنية، من المفيد واللباقة، حسب مالك بن نبي ان يرشحك شريك متواطئ، عوض ان تترشح بنفسك، لقد نبه في ذلك مالك، الى ما سيحدث في دستور اول برلمان جزائري، يتساءل مالك: كيف ان البعض لم ينس الدرس، عندما تواضع وكلف الآخرينبتقديم ترشيحه، لرآسة الجمعية التأسيسية الجزائرية، والمقصود هنا(فرحات عباس) والطريقة التي افتك بها رئاسة الجمعية التأسيسية الجزائرية المستقلة سنة 1963م.(41)

اصبح مالك بن نبي مشهورا بين الجمعيات المسيحية، داعية مسلم، عظيم الشأن، فهو يمثل عنصر ليست لديه القابلية للتنصير، فالاسلام الذي يتحدث عنه مالك يختلف عن اسلام الانديجان، الذي كان مركز ضعفهم، فالسبب الرئيسي في ذلك يرجع الى الحي اللاتيني الذي تحولت اليه العصبة الجزائرية، فمن لعبة الدسائس السياسية الى الفساد والغراميات، مع بائعات الهوى في الحي، يعترف مالك بن نبي، ان الفساد الذي وجده في بني جلدته، جعله يفقد صداقتهم، لم يبق من ذلك الا شخصية حمودة بن ساعي المحترمة.(42)

جمع اللقاء بين مالك بن نبي وماسينيون، في استضافة رتبها بومنجل، مع محمد الفاسي، في ذلك وجه مالك سؤال حذق الى ماسينيون، الذي كان يتحاشى بعض الاسئلة، قال له مالك: "السيد الاستاذ، الا تعتقد أن تدهور العالم الاسلامي، مرده، فضلا عن اسباب اخرى، الى ان التفسير القرآني محشو بالخرافات الاغريقية وبالاسرائيليات؟"[43] كان السؤال موجها الى ماسينيون بحدة الرمح، وصف مالك وجه ماسينيون الموقف قائلا: "اتذكر ان وميضا برق في عينيه ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع سؤالي، الذي لم اسع من جهتي لاعادته، وجب ان اعترف اني لم افهم تصرف شخص انتزع رغم كل شيئ تعاطفي نظير موقفه من الحرف العربي."[(44)] انذاك فهم مالك وشاية محمد الفاسي، وبومنجل، وانه وقع في شرك ماسينيون، لقد وضع اليوم اسمه فوق وجهه، وكان ثمن ذلك، أن بومنجل كان يسعى الى الحفاظ على منصبه في (سان بارب) والفاسي يسعى الى منصب في (جامعة القرويين).

نتائج التحليل الانثروبولوجي:

بعد عملية العرض والتحليل للعلاقات التي جمعت طبقات (الاندجينا)، أو الطبقة المثقفة لبلاد شمال افريقيا، ظهر أن المستدمر الفرنسي في جميع مواقعه، كان يتابع "فئران التجارب" التي وضعها في متاهة بين معهد الشبان المسيحيين والمركز الثقافي الاسلامي، الذي وضعه هو اللآخر، وفق متطلبات تجعل الأفراد داخله يشعرون بالحركة الحرة، كما رصد لصلابة الشخصية التي يتميز بها سكان شمال افريقيا "خصوصا الشباب" حي بأكمله مليئ بالعاهرات وموظفين في المخابرات ومع مواقع، مقهى "السيد ديبون" والوان البنات اللائي يروجن لتجارة الجسد.[(45)]

فالواقع الذي فرضه ماسينيون من خلال صنع اتباع من نفس الطينة، جعلته يتوغل أكثر، داخل العمق الحقيقي والدقيق "للانديجان"، فاذا كانت الوراثة والجينات تحدد المعطى الفيزيولوجي للأندجينا، فان مجموعة السجايا والخلق، والدين، لا تتغير، فالدين ليس موروث بيولوجي يمكن تغييره، يتوقف الدين على المعطى الاجتماعي التربوي، هذا ما دفع مالك بن نبي يوجه مؤلفاته في ما بعد، الى التأسيس للنهضة، كما ان السؤال الذي وجهه الى ماسينيون، لم يقصد من خلاله احراجه بالتغييرفي الحقيقة القرآنية أو مثل ما جاءت في

العنوان الذي أهداه الى صديقه بن ساعي"الظاهرة القرآنية" المقصود هناك أن الظواهر، لا تتغير في وقوعها الطبيعي، فاذا غيرت شروطها بطلت الظاهرة، فالنتائج التي توصل اليها ماسينيون، من خلال تغيير البنية في القرآن- قصدا- من حيث انه زرع خزعبلات واساطيراليونان وبعض الصور الخاطئة التي حاول من خلالها اليهود ازهاق المعنى الدقيق للنص القرآني، الذي يرفض التطبيقات التحليلية في (ما ذهب الى انتهاجه في ما بعد محمد اركون من معنى التجديد في النص القرآني) الطرح شرع فيه من قبل شارل دوفوكون وماسينيون، وفشل كل منهما في ذلك).

ان الطرح الذي جاء به مالك بن نبي، كذب ادعاء كل من دوفوكون وماسينيون واخلط اوراق المشروع المخابراتي الفرنسي في بلاد شمال افريقيا. فالتغييرالجيني(التهجين) المقصود منه، صنع شخصية ناشئة مع عقدة الهوية، والغرض في ذلك كسب طوعية الطبقة المشكلة عن طريق الاغتصاب، وفق عوامل زمنية، فالصفح لا يمكن الافصاح عنه الا بالاعتراف في الكنيسة المسيحية، التي يتغير فيها معطى العلاقة الاجتماعية، وفق الروح المسيحي الذي يقود المذنبين الى الخلاص، وفي ذلك صعق ماسينيون عند سؤاله من طرف مالك، عن ضرورة تنقية الدين الاسلامي من الخرافات اليونانية والاكاذيب اليهودية. فشل مشروع ماسينيون، مثلما فشل من قبله مشروع دوفوكون، واذا كان مشروع هذا الاخير قد انتهى بقتله، فان مشروع ماسينيون تهدم، بمجرد ما اصطدم بالآية الكريمة التي ضل يكررها قبل مماته، في قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ".(سورة الحجر- الآية9). وبذلك زهق مشروع المخابرات الفرنسية في بلاد شمال افريقيا، وفي الجزائر. ان حقيقة الاستدمار بشتى صوره، رجس في طبيعة البشر، يلوث طبيع البشر البريئة، ويقضي على جميع صور الابداع، فماهية العدوان على الصعيد الثقافي يعرفها الجزائريون جيدا، وقد عبر عنها امير البيان- العلامة محمد البشير الابراهيمي- قائلا: "الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة، ذو غرائز شرهة، ونظرات عميقة الى وسائل الافتراس، واخضاع الفرائس، واهم تلك الوسائل قتل المعنويات، وتخدير الاحساسات الروحية."[46] واضاف قائلا:"الاستعمار القائم على

الجندي، والمعلم، والطبيب، والراهب، هيكل حيواني يمشي على اربع (...) وان الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الاربعة على عشرة ملايين من البشر، فرم مواهبهم بالتعطيل، وعقولهم بالجمود واذهانهم بالركود، وافكارهم بالعقم، واضاع على الانسانية بضياعهم عشرة ملايين من المواهب، والعقول، والاذهان، والافكار، وهي رأس مال عظيم كانت تستعين به- لولا الاستعمار- على الخير العام والمنفعة و تنتفع به الانسانية".[47]

المراجع والهوامش:

[1]- مالك بن نبي، العفن، ترجمة، نورالدين خندودي، دار الأمة للنشر و الطباعة، 2007، الطبعة الأولى، ص: 7

[2]- المصدر نفسه،ص: 11

[3]- المصدر نفسه، ص: 12

[4]- مستخرج من قاعدة البيانات المفتوحة من المكتبة الوطنية الفرنسية — http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb11903195c — تاريخ الاطلاع: 10 فيفرير 2017 — الرخصة: رخصة حرة.

[5]- Fleming, Fergus. The Sword and the Cross: Two Men and an Empire of Sand. 2003, New York: Grove Press. pp. 279-280

* - les "lettres de Charles de Foucauld à Massignon", Elles sont aujourd'hui publiées. Cf. Jean-François Six, L'Aventure de l'amour de Dieu, 80 lettres inédites de Charles de Foucauld à Louis Massignon, Paris, Seuil, 1993. Parmi les dernières lettres de Foucauld rédigées quelques heures avant son assassinat, le 1er décembre 1916 (l'une était adressée au commandant Laperrine, l'autre à sa cousine Marie de Bondy), on a retrouvé, dans le sable près de l'ostensoir devant lequel il priait, celle qu'il destinait à celui qu'il appelait son très cher frère en Jésus . Cf. ibid., p. 214-215

[6]- Fremantle, Anne Desert Calling: The Life of Charles de Foucauld, London Hollis & Carter, 1950 pp: 324

[7]- Fremantle, Anne Desert Calling: The Life of Charles de Foucauld, London Hollis & Carter, 1950 p: 328

[8]- Christian Destremeau – Jean Moncelon, Massignon, le cheikh admirable , Paris, Plon, 1994, et Le Capucin,pp: 26-27

[9] - Vincent Mansour Monteil, Louis Massignon (1883-1962). Le Linceul de feu, Paris, Édit-Vegapress, 1987. 295 p:19

[10] - Louis Massignon, La passion d'al-Hosayn-ibn-Mansour al-Hallaj: martyr mystique de l'Islam, exécuté à Bagdad le 26 mars 922; étude d'histoire religieuse, Volume 1. libririe orientaliste, paris, 1922, P: 494 .

[11]- http://data.bnf.fr/ark:/12148/cb11914994p#foaf:Person> <http://vocab.org/bio/0.1/death> "1962-10-31

[12] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق ص 74
[13] - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 147
[14] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 74
[15] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 75.
[16] - المرجع نفسه، ص 76
[17] - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق ،ص ص 341- 342
[18] - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق ، ص 343
[19] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 86
[20] - المرجع نفسه، ص 88
[21] - المرجع نفسه، ص 89
[22] - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، القسم 2، مصدر سابق، ص 344
[23] - المصدر نفسه، ص 346
[24] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 90
[25] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 91
[26] - انظر: حمودة_ين_ساعي- الخميس 24-02-2017 /https://ar.wikipedia.org/wiki
[27] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص 96
[28] - عبد الله العويسي، مالك بن نبي (حياته و فكره)، مرجع سابق، ص ص 97
[29] - المرجع نفسه، ص 98
[30] - المرجع نفسه، ص 100
[31] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق ص 75
[32] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق ص 75
[33] - المصدر نفسه، ص 76
[34] - المصدر نفسه، ص 77
[35] - المصدر نفسه، ص 78
[36] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق، ص. 78
[37] - لعلي مراد، شارل ديغوكون في نظر الاسلام، ترجمة علي مقلد، المنشورات العربية، لبنان، 1980 .ص 81
[38] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق، ص. 79
[39] - المصدر نفسه، ص. 81
[40] - الصدر نفسه، ص. 82
[41] - مالك بن نبي، العفن، مصدر سابق، ص. 83
[42] - المصدر نفسه، ص 84
[43] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[44] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[45] - المصدر نفسه، ص 86
[46] - كيل رسلر، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر(اهدافها و حدودها 1830- 1962، ترجمة، نذير طيار، الناشر، دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني، الطبعة1 ، اغسطس 2016 .
https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publish- ers

[47]- كميل رسلر، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر(اهدافها و حدودها 1830- 1962، ترجمة، نذير طيار، الناشر، دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني، الطبعة1 ، اغسطس 2016 .
https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publish- ers